الدرس الأول

الكتاب المنزَّل : وظيفته وموقف الناس منه

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ١-٤) .

الحروف المقطعة في بعض سور القرآن العظيم :

سورة إبراهيم تبدأ بقوله تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١) .

﴿ الٓر ﴾ : حروف مُقطَّعة بُدِأت بها أعدادٌ من سُور القرآن الكريم ، واختلف المفسِّرون في بيان معناها ، وعَلامَ تدلُّ ، وذكرنا هذا في تفسير سورة الرعد ، ولا نريد أن نعيد ما قلناه هناك[1].

وخلاصة ما رجَّحه المفسِّرون : أنَّ هذه الحروف المُقطَّعة : ﴿ الٓمٓر ﴾ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ﴿ طسٓمٓ ﴾ : هذه الحروف التي ينطق بها العرب ، هي التي جاء بها القرآن ، الذي أعجزكم أن تأتوا بحديثٍ مثله ، أو بعشر سور مثله مُفتريات ، أو بسُورة مثله ، والقرآنُ مُؤلَّف من هذه الحروف ، فكأنَّ هذه الحروف إشارة إلى الإعجاز القرآنيِّ .

---

(١) ينظر ما قلته عن الأحرف المقطعة في أول (تفسير سورة الرعد) صـ ٦٥- ٦٨ .

OBEIKAN.COM

ما الذي أعجزكم أيها العرب ، وأنتم فرسان البلاغة ، وأنتم رجال الشعر والأدب والبيان ، ما الذي أعجزكم أن تأتُوا بمثل هذا القرآن ، الذي تَحَدَّاكم محمدٌ أن تأتوا بسورةٍ من مثله؟ لا يمكن إلا أن يكون هذا القرآن من عند الله عزَّ وجلَّ .

انتقاء الحروف المقطَّعة :

ولكن يبقى هناك أمر ؛ سلَّمنا بأنَّ هذا إشارة إلى الإعجاز القرآني ، ولكن لماذا اختار الله سبحانه وتعالى أن تبدأ هذه السورة بـ ﴿ الٓر ﴾ ، وليس بـ ﴿ الٓمٓ ﴾؟ لماذا اختار لهذه : ﴿ حمٓ ﴾ وهذه ﴿ طسٓ ﴾ ؟

ففي القرآن سور بدأت بحرف واحد ، مثل : ﴿ قٓ ﴾ ، ﴿ نٓ ﴾ ، ﴿ صٓ ﴾ .

وأحيانًا بحرفين ، مثل : ﴿ حمٓ ﴾ ، ﴿ طسٓ ﴾ ، ﴿ طه ﴾ ، ﴿ يسٓ ﴾ .

وأحيانًا ثلاثة حروف : ﴿ الٓر ﴾ ، ﴿ طسٓمٓ ﴾ .

وأحيانًا أربعة حروف : ﴿ الٓمٓر ﴾ ، ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ .

وأحيانًا خمس حروف : ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ ، ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ .

فلماذا يختار لهذه السُّورة ثلاثةَ أحرف : ﴿ الٓر ﴾ ، ولم يَخْتَر لها مثلاً ﴿ طسٓمٓ ﴾ ؟ يظلُّ هنا أمر نقول فيه : الله أعلم بمراده ، مهما حاولنا أن نذكر الحكمة ، لا نستطيع أن نفسِّر تخصيص سورة بحرف أو حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١)

أي : هذا كتابٌ أنزلناه إليك يا رسول الله ، هذا القرآن الذي تتلوه على الناس لتُبَيِّنَه لهم : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ ، فالقرآنُ كتابٌ . للأسف هناك بعض المتعالمين الذين يعيشون في فرنسا وغيرهم ويَّدعون العلم باللسانيات[1]،

---

(١) علم اللسانيات : Linguistics هو العلم الذي يهتم بدراسة اللغات الإنسانية .

OBEIKAN.COM

والأبيمستمولوجيا[1] والثيولوجيا[2] ونحو ذلك ، يقولون : إنَّ القرآن نصٌّ شفهيٌّ ، وهذه الدعوى ليست صحيحة ، لأن القرآن نصٌّ مكتوب ، الله سبحانه سمَّاه كتابًا كما سمَّاه قرآنًا . فهو قرآنٌ لأنه يُقرأ ، وكتاب لأنه يُكتب .

من أوَّل ما أُنزل القرآن على محمد ﷺ ، كان هناك كُتَّاب للوحي ، وكان النبي ﷺ يأمرهم أن يُسجِّلوه في الحال على ما تيسَّر لهم . لم يكن الورق متيِّسرًا ، وإنما يكتبونه على العظام ، وعلى سَعَف النخل ، وعلى الرقاع ، وعلى الحجارة ، كُتَّاب متعددون يكتبونه ، ويبدأ الصحابة بحفظه .

فهو كتاب ، ولذلك كثيرًا ما يسميه بالكتاب ، في سورة يونس : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ (يونس:١) .

وفي سورة هود : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) .

وفي سورة الرعد : ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ (الرعد:١) .

وفي سورة الحجر : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ (الحجر:١) .

وفي الحواميم والطواسين : ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ (الشعراء:٢) ، (القصص:٢) ، ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (غافر:٢) ، ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ (الجاثية:٢) ، (الأحقاف:٢) ، ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ (الزخرف:٢) ، (الدخان:٢) . فالقرآن كتاب ، وهذه حقيقةٌ معروفةٌ . كُتِب منذ عهد النَّبيِّ ﷺ ، وإن لم يُجمع في مصحف واحد .

السِّرُّ في عدم جمعه في مصحف واحد :

لماذا لم يُجمع في مصحف واحد ؟

---

(١) الأبيمستمولوجيا : Obmistologia ، علم نظرية المعرفة .

(٢) الثيولوجيا : Theology علم العقائد .

OBEIKAN.COM

لأنه كان يَتَنزَّل فقرة بعد فقرة ، جبريل روَّاح غدَّاء بآيات الله ، كيف يُكتب في مصحف وهو لم ينتهِ بعد؟ تنزل الآية ويقول له : ضَعها في سورة كذا بعد آية كذا ، وهكذا ، فما دام القرآن ينزل لا يمكن أن يُوضَع في مصحف بين دفَّتين ، ولذلك بعد وفاة الرسول جُمع فعلاً في صُحُف ، السُّور كلُّها مُرتَّبة ، وَوُضعَ في بيت أبي بكر حتى تُوفي ، ثم في بيت عمر بن الخطاب حتى تُوفي ، ثم في بيت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها .

جَمْعُ القرآن في عهد أبي بكر :

روى البخاري في صحيحه ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إليَّ أبو بكر : إنَّ عمر أتاني ، فقال : إنَّ القتل قد استَحرَّ بقرَّاء القرآن ، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرَّاء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

فقلتُ لعمر : كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله؟

قال عمر : وهو والله خير . فلم يزل يراجعني حتى شَرَح الله صدري لذلك ، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتَّهمك ، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فَتَتَبَّع القرآن فاجمعه .

فوالله لو كلَّفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليَّ ممَّا أمرني به من جمع القرآن .

قلتُ : كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . فتتبَّعتُ القرآن أجمعه من العُسُب ، واللِّخَاف[1]،

---

(١) العُسُب : جريد النخل ، جمع عَسِيب . واللخاف : الحجارة البيض العريضة الرقيقة ، جمع لَخْفَة . انظر : الفائق (٤٣١/٢) .

OBEIKAN.COM

وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ . . . ﴾ (التوبة:١٢٨،١٢٩) ، حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفَّاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر[١].

جَمْع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه :

ثم لما اختلف الناس في القراءات ، لدخول كثير من العَجَم في الإسلام ، ونتيجة الأحرف التي أُنزل بها القرآن ، وكذلك اختلاف لغات القبائل بعضها مع بعض ، وهذا يقول : قرآني أصح من قرآنك ، وقراءتي أصح من قراءتك .

فجمع عثمان في خلافته الناس على مصحفٍ واحد باستشارة الصحابة رضي الله عنهم وبإجماعهم ، وهو ما يُسمَّى بـ(مصحف الإمام) ، بالرسم العثماني ، وهو رسم يصلح للقراءة بالقراءات العشر .

ولا زال القرآن الذي كُتب في عهد عثمان ، وبإقرار الصحابة جميعًا ، لا زال هو الذي نقرؤه الآن ، فهو كتابُ الله .

هل الكتاب غير القرآن ؟

نحن في أصول الفقه ، وفي الفقه نقول : مصدرنا الأول : الكتاب والسنة ، أو الكتاب ثم السنة ، نقول : الكتاب . حتى قلَّما نقول القرآن . هنا يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ كِتَبٌ ﴾ (إبراهيم:١) ، وهل الكتاب غير القرآن ؟

زعم بعضهم ذلك ، مثلما فعل مهندس سوري ألَّف كتابًا قال فيه : الكتاب شيء ، والقرآن شيءٌ آخر ، والذكر شيء آخر ، والفرقان شيء آخر . وقال : الفرقان من خصائصه كذا ، والذكر كذا ، والقرآن كذا[٢]!!

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٩١) ، وأحمد (٢١٦٤٤) ، والترمذي في تفسير القرآن (٢٨٣/٥) ، عن زيد بن ثابت .

(٢) وقد جمع شبهاته في كتابه الذي سماه : (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة) .

OBEIKAN.COM

وهذا كَذِب ، الكتاب هو القرآن ، والقرآنُ هو الكتاب ، الله تعالى يقول : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾(الدخان: ١-٣).

﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ : أي الكتاب الذي هو القرآن ، ﴿ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ .

وفي سورة يوسف : ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١،٢) . ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ أي : الكتاب ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ .

وفي سورة الزخرف : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ١-٣) .

وفي سورة فُصِّلت : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (فصلت: ١-٣) ، كتابٌ فُصِّلت آياته قرآنًا عربيًّا ، ففي نفس الآية ذُكر الكتاب والقرآن .

فهؤلاء المتعالمونَ الذين جاءونا على آخر الزمن ، وجاءوا بما لم يقُل به عالمٌ طوال أربعةَ عشرَ قرنًا ، ويزعمون أنَّهم الذين يفهمونَ القرآن وحدهم ، جاءوا بقرآن جديد غير القرآن الذي فهمه محمد ﷺ ، والصحابة !! هم فهموا ما لم يفهمه رسول الله ﷺ !!

القرآنُ هو الكتاب ، والكتابُ هو الذِّكر ، يختلف المفهوم ويتَّفق الماصَدَق[1]، كما نقول في علم المنطق ، يعني : الأسماء لها مفهومات مختلفة ، ولكن تصدُق على شيء واحد ، فمثلاً السيف له أسماء كثيرة : السيف ، الحسام ، الصَّارم ، البتَّار ، كلُّ هذه الأسماء لها معنى ، ولكن هذا كله هو الماصدق . والموضوع واحد ، فالذكر هو القرآن ، والكتاب هو القرآن ، والفرقان هو القرآن .

---

(١) يطلق لفظ (المفهوم) في اصطلاح المناطقة على مجموعة الصفات والخصائص المشتركة بين الأفراد التي تميزهم عن غيرهم .
ويطلق لفظ (الماصدق) على مجموع الأفراد الذين يشتركون في تلك الصفات .

OBEIKAN.COM

ونجد ذلك في سياق واحد ، فالله تعالى يقول في سورة فُصِّلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ ـ أي : الذكر ـ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤١،٤٢). ثم قال بعدها : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ ـ أي : الكتاب أو الذكر ـ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ (فصلت:٤٤) ، فالذكر هو الكتاب وهو القرآن .

هؤلاء الذين يأتوننا بأشياء لا دليلَ عليها ولا يقوم عليها برهان قطعي ، يخالفون الأمة كلَّها ، يخالفون عصور الأمة ، يخالفون المفسِّرين والفقهاء ، والمُحدِّثين والمتكلِّمين ، واللغويين وكل علماء الأمة ، يأتي هؤلاء ليخالفوهم ويزعُموا أنَّهم هم الذين يعرفون الصَّواب ، ويملكون الحقيقة وحدهم .

أسماء القرآن وأوصافه :

ونقل الإمام الزركشي عن أبي المعالي عُزيزي بن عبد الملك المعروف بشَيذَلَة في كتابه (البرهان) : (اعلم أنَّ الله سمَّى القرآن بخمسة وخمسين اسمًا : سمَّاه كتابًا ومبينًا في قوله : ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (الزخرف:٢،١) ، (الدخان:٢،١).

وقرآنًا وكريمًا في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة:٧٧) .

وكلامًا : ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٦) .

ونورًا : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤) .

وهدى ورحمة : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لقمان:٣) .

وفرقانًا : ﴿ نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ (الفرقان:١) .

وشفاء : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ (الإسراء:٨٢).

وموعظة : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (يونس:٥٧) .

OBEIKAN.COM

وذكرًا ومباركًا : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ (الأنبياء:٥٠) .

وعليًّا : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٤) .

وحكمة : ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ (القمر:٥) .

وحكيما : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (يونس:١) .

ومهيمنًا : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(المائدة:٤٨).

وحبلاً : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:١٠٣) .

وصراطًا مستقيمًا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

وقيِّمًا : ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ ﴾ (الكهف:٢) .

وقولاً فصلاً : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ (الطارق:١٣) .

ونبأ عظيمًا : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (النبأ:١،٢) .

وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهًا : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ (الزمر:٢٣) .

وتنزيلاً : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٢) .

وروحًا : ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى:٥٢) .

ووحيًا : ﴿ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ (الأنبياء:٤٥) .

وعربيًّا : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف:٢) .

وبصائر : ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ ﴾ (الأعراف:٢٠٣) .

وبيانًا : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١٣٨) .

وعلمًا : ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (البقرة:١٤٥) . وحقًّا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ (آل عمران:٦٢).

OBEIKAN.COM

وهاديًا : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى ﴾ (الإسراء:٩) .

وعجبًا : ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (الجن:١) .

وتذكرة : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ (الحاقة:٤٨) .

والعروة الوثقى : ﴿ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

وصدقًا : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ (الزمر:٣٣) .

وعدلاً : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ (الأنعام:١١٥) .

وأمرًا : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ﴾ (الطلاق:٥) .

ومناديًا : ﴿ يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ (آل عمران:١٩٣) .

وبشرى : ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ ﴾ (النمل:٢) .

ومجيدًا : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ (البروج:٢١) .

وزبورًا : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) ،

وبشيرًا ونذيرًا : ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (فصلت:٣،٤) .

وعزيزًا : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت:٤١).

وبلاغًا : ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (إبراهيم:٥٢) .

وقَصَصًا : ﴿ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف:٣) ،

وسمَّاه أربعة أسماء في آية واحدة : ﴿ صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ (عبس:١٣،١٤) انتهى)[1].

---

(١) أسماء القرآن الأساسية أربعة : (القرآن ، والكتاب ، الفرقان ، الذكر) وبقية ما نقله الزركشي هي أوصاف لهذه الأسماء . انظر : البرهان للزركشي (٢٧٣/١ ، ٢٧٤) .

OBEIKAN.COM

إنزال الكتاب :

﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ (إبراهيم:١)

أنزلناه : الله سبحانه وتعالى يتحدَّث عن نفسه بلغة التعظيم ، ومَنْ أعظم من الله؟ القرآن يقول دائمًا : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ (يوسف:٢) ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم ﴾ (الحجرات:١٣) ، لا يقول : أنا خلقتكم . وإنما يقول : ﴿ إِنَّا ﴾ ، سبحانه هو خالق الخلق ، ومالك الملك ، ومُدبِّر الأمر .

والنُّزول عادةً يكون حركةً من أعلى إلى أسفل ، والقرآن نزل من السماء إلى الأرض ، بل نزل من اللوح المحفوظ من أعلى العُلى إلى هذه الأرض ، من الله إلى الخلق ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٤)، القرآن وصفه الله بأسمائه الحسنى .

العليُّ الحكيم من أسماء الله ، ولذلك القرآن وُصف بأنه ﴿ عَلِىٌّ ﴾ ، وبأنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ وبأنه مجيد ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ (البروج:٢١) ، وهو عزيز ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ (فصلت:٤١) . وهو كريم ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (الواقعة:٧٧) وهو نور ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٧٤) وهو عظيم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ (الحجر:٨٧)

كيفيَّة نزول القرآن الكريم :

فما معنى : ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾؟ أنزلناه من اللوح المحفوظ ، من أمِّ الكتاب إلى السماء الدنيا؟ هكذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما ، فيما صحَّ عنه من عدَّة طرق أنه قال : أُنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العُليا إلى السماء الدنيا جملةً واحدة ، ثم فُرِّق في السنين . قال : وتلا هذه الآية : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ (الواقعة:٧٥) ،

OBEIKAN.COM

قال : نزل متفرِّقًا : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا[1].

وابن عباس لا يمكن أن يقول هذا الكلام من رأيه ، كيف يعرف هذا ، وهذا من أنباء الغيب؟ ولذلك قالوا : إذا قال الصَّحابيُّ رأيًا أو تفسيرًا لا مجال للرأي فيه ، ولم يكن ممَّن عُرف بالأخذ عن أهل الكتاب ؛ اعتُبر هذا الحديث الموقوف على الصحابي في حكم المرفوع إلى النَّبيِّ ﷺ . ولذلك نحن نقول : إنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، والليلة التي نزل فيها هي ليلة القدر ، ليلة نزول القرآن من السماء من أعلى علِّيين ، من أمِّ الكتاب ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

تفسير ابن عباس لكيفية نزول القرآن الكريم :

سُئل ابن عباس : كيف يكون القرآن نَزَل في ليلة القدر ، والقرآن نزل في رمضان ، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (البقرة:١٨٥)؟ القرآن نزل في رمضان ، وفي شوال ، وفي ذي الحِّجة ، والمُحرَّم ، وصفر ـ ينزل طوال السنة ـ كيف ينزل في ليلة القدر؟ قال رضي الله عنه : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا[2].

وبعضُ العلماء الذين لم يَرْضَوا بهذا التفسير قالوا : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ، يعني :

---

(١) رواه النسائي في الكبري في فضائل القرآن (٧٩٩٠) ، والطبراني في الكبير(٣١٢/١١) ، وفي الأوسط (١٤٧٩) ، والحاكم في التفسير (٢٢٢/٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في المجمع (١٤٠/٧) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه عمران القطان ، وثقه ابن حبان وغيره . وفيه ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) سبق تخريجه .

OBEIKAN.COM

ابتدأنا إنزالَهُ في ليلة القدر ، يعني أوَّل ما نَزَل : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١) ، ولذلك قال بعضهم : سبعة عشر من رمضان هي ليلة القدر[1].

نزولُ القرآن وتنزُّلاته :

نحن نقبل ما جاء عن ابن عباس أنَّ القرآن نزل أولاً إلى السماء الدنيا ، ثم بعد ذلك ـ بعد ما قَرُبَ من الأرض ـ أصبح ينزل حسب الوقائع والحوادث في حوالَي ثلاث وعشرين سنة ، كلَّما حدثت حادثة ينزل فيها القرآن ، يُعلِّم الناس ويُجيب عن تَسَاؤلاتهم ، ويَحُلُّ مشكلات المجتمع الجديد والأمة الجديدة التي يبنيها رسول الله ﷺ ، على أُسس قرآنية : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان:٣٣) ، ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (الإسراء:١٠٦) .

الأول : إنزالٌ من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا .

الثاني : نزوله حسب الوقائع والحوادث ، وهو ما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ ﴾ أي : نزَّلناه تنزيلاً حسب الوقائع ؛ لأن كلمة ﴿ تَنزِيلُ ﴾ معناها التفعيل ، وهو يفيد التكثير ، كثرة النزول ، مرَّة بعد مرة ، وحالة بعد حالة .

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ يا محمَّد ، لم تُنشِئْه أنت ولم تصنعه ، بل أُنزل عليك ، ليس لك منه إلا أن تَتلقَّاه ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (الأعلى:٦) .

وتحفظه وتُبلِّغه إلى الأمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة:٦٧) .

وتُبيِّنه للناس : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل:٤٤) .

---

(١) رواه عبد الرزاق في الصيام (٧٦٩٧)، وابن أبي شيبة في الصلاة (٨٧٧٢)، عن ابن مسعود موقوفا عليه .

وتطبِّقه عليك ، لأنَّ بيانك ليس بمُجرَّد القول ولكن بالعمل ، عليك أن تُبيِّن هذا القرآن وتُطبِّقه ، لأنك الأسوة لهذه الأمة .

عدم توقع الرسول نزول القرآن عليه :

فالرسول أُنزل إليه هذا الكتاب ، ليس له دَخْلٌ فيه ، وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (القصص:٨٦)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشورى:٥٢) .

أُنزل إليه الكتاب ، وما كان يتوقَّع ، ولذلك حينما نزلت الآيات الأولى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١) ، حينما ضمَّه جبريل وغطَّه غطًّا قويًّا ، فقال : اقرأ .

قال : « ما أنا بقارئ » . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

قلتُ : « ما أنا بقارئ » . فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني .

فقال : اقرأ .

فقلتُ : « ما أنا بقارئ » . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني .

فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ (العلق:١-٣) ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : « زملوني زملوني » . فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع[1] . ما كان يتوقَّع هذا !

---

(١) جزء من حديث متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٣) ، ومسلم في الإيمان (١٦٠) ، كما رواه أحمد (٢٥٨٦٥) ، عن عائشة .

OBEIKAN.COM

أُنزل إليه وما كان يرجوه وما كان يتوقَّعه ، ما له دخل فيه ، ولذلك أحيانًا يُبطئ عليه الوحي ، لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، ينتظر حتى يأتيه الوحي .

عالمية الرسالة المحمدية :

﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

الأنبياء جاؤوا ليخرجوا أقوامهم من الظلمات إلى النور كما قال الله تعالى لموسى : ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

ومحمَّدٌ ﷺ لم يبعث لقومه خاصَّة ، وإنما بُعث إلى النَّاس كافَّة ، وهذا من خصائصه ﷺ . عدَّ النَّبيُّ ﷺ خصائصه ، فقال : «وكان النبيُّ يبعثُ إلى قومه خاصَّة ، وبُعثتُ إلى النَّاس عامَّة»[1]. ولذلك هنا لم يقل : (لتُخرج قومك) ، وإنما قال : ﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ ﴾ ، العرب والعجم ، أهل الشرق وأهل الغرب .

الحكمة من جمع الظلمات وإفراد النور :

جمع الظلمات وأفرد النور ، لم يقل : من الظلمة إلى النور ، ولم يقل : من الظلمات إلى الأنوار ، لماذا ؟ لأنَّ الظلمات تُمثِّل الضلالات ، وضلالات النَّاس وأباطيلهم شتّى ، ليس هناك باطل واحد ، هناك ألف باطل وباطل ، إنما الحقُّ واحد لا يتعدَّد . أبواب الضلالات كثيرة ، ولكن باب الهدى واحد ، المُضلُّون كثيرون ، ولكنَّ الهادي واحد ، هو الله .

ولذلك تعدَّدت الظلمات كما ذكرت في القرآن الكريم : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ (البقرة:٢٥٧) ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٥٢١) ، كما رواه أحمد (١٤٢٦٤) ، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢) ، عن جابر بن عبد الله .

OBEIKAN.COM

عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الحديد:٩) ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الطلاق:١٠،١١) ، فالظلمات كثيرة ، والباطل كثير الألوان والأنواع ، ولكن الحقَّ واحد ، ومصدر الحقِّ واحد هو الله عزَّ وجلَّ .

كثرةُ الظلمات وتراكمُها :

النَّاسُ ضلُّوا ضلالاتٍ كثيرة ، عَبَدُوا من دون الله آلهَةً ، لا تُبْصِرُ ولا تَسْمَع ، ولا تُعْطي ولا تَمْنَع ، ولا تَضُرُّ ولا تَنْفَع ، ولا تَمْلِكُ مَوْتًا ولا حَيَاةً ولا نُشورًا .

الناسُ ضَلُّوا سواءَ السبيل في عقائدهم ، في عباداتهم ، في معاملاتهم ، وَأَدُوا البنات ، قتلوا أولادهم من إملاق أو خَشْيَةَ إملاق ، شَرِبوا وسَكِروا ، ارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، اقْترفوا المظالم ، افترس الأقوياء الضعفاء ، تجبَّر السادة على العبيد ، كانت الدنيا هكذا .

فالغاية من إنزال القرآن وبعثة الرسول هي إخراج الناس ـ كلِّ الناس ـ ليس إخراج قريش وحدها ، ولا العرب وحدهم ، بل إخراج الناس من الظلمات إلى النُّور .

الحكمة من إنزال الكتاب على النَّبيِّ ﷺ :

صرَّح هنا بالهدف من إنزال هذا الكتاب إلى محمد ﷺ ، لماذا أَنْزَل الله إليه هذا الكتاب؟ قال : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ، أي : لِتَهديَ الناس بهذا الكتاب ، الذي هو أعظمُ هَادٍ للنَّاس من ضَلالاتهم .

فجاء محمَّد عليه الصلاة والسلام ، وأوحى الله إليه هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

OBEIKAN.COM

هذه مهمَّة هذا الكتاب ، ومهمَّة الرسول الذي أُنزل إليه هذا الكتاب : أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أن يُعلِّمهم من جَهَالة ، وأن يهديَهم من ضلالة ، يُخرجهم من ظلمات الشِّرك إلى نور التوحيد ، من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، من ظُلمات الرذيلة إلى نور الفضيلة ، من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، من ظلمات الانحراف إلى نور الاستقامة ، من ظلمات الباطل إلى نور الحقِّ ، من ظلمات الطاغوت إلى نور الله عزَّ وجلَّ ، وهو أساس النور في هذا الوجود كلِّه : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) .

على الرسول أن يُخرج الناس من الظلمات : ظلمات الاعتقاد ، وظلمات الفكر ، وظلمات السلوك ، وظلمات التقاليد ، وظلمات الأنظمة الجاهليَّة ، والقوانين الجاهلية ، ليخرجهم من هذه الظلمات كلِّها إلى نُور الإسلام بإذن الله عزَّ وجلَّ .

﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ ﴾ ، الذي يقوم بمهمة الإخراج هو محمد عليه الصلاة والسلام ، عليه أن يقوم بالجهد لإخراج الناس ، فهم لن يخرجوا بمجرَّد أن يتلوَ عليهم القرآن ، فهم بحاجة إلى جهدٍ جَهيد لإخراجهم من الظلمات إلى النُّور ، يحتاجون إلى دعوة ، إلى ترغيب ، إلى ترهيب ، إلى تشويق ، إلى تخويف ، إلى تربية ، إلى متابعة .

وهكذا كان عمل النَّبيِّ ﷺ ، يعايش الناس ، كان لهم أسوةً حسنةً في كلِّ أمور حياتهم ، يجدون في حياته الأسوة الحسنة لهم : الشاب يجدُ أسوته في حياة محمَّد عليه الصلاة والسلام وسيرته ، والمتزوِّج يجد أسوةً في سيرته ، والعَزَب يجد أسوة فيه حينما كان عزبًا ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والمسالم والمحارب ، كلُّ الناس يجدون أسوتَهم فيه عليه الصلاة والسلام . والأنبياء جاؤوا ليخرجوا أقوامهم من الضلالة إلى الهداية[1] .

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل في تفسيرنا لقول الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

OBEIKAN.COM

دلالة قوله سبحانه : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ :

محمَّد عليه الصلاة والسلام هو الذي عليه أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ، يعني بتوفيق اللهِ سبحانه وتعالى وبتيسيره .

فلولا أنَّ اللهَ يشُدُّ أزْرَك ، ويوفقك ، ويساعدك ما استطعتَ أن تَهْديَ أحدًا ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص:٥٦) .

أنتَ عليكَ أن تُبيِّن ، وعليك أن تَتْلُوَ القرآن ، وعليك أن تَعْمَلَ لهداية الناس ، ولكن بدون توفيق الله لن يهتديَ أحدٌ . ولذلك قال : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم:١) .

دلالة كلمة الرب في القرآن الكريم :

ولكنَّ القرآن هنا اختار أن يكون بإذن ربهم ، وكلمة الرب قد ذُكرت في القرآن كثيرًا مضافة مثل : ﴿ رَبُّكَ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، ﴿ رَبِّكُمَا ﴾ ، ﴿ رَبَّكُمْ ﴾ ، ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ ، ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ، ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ، ذكرت في القرآن أكثر من تسعمائة وخمسين مرة ، وهي تدلُّ على السِّيادة المُطْلَقة ، وتدلُّ على المِلْكيَّة ؛ فالعرب تقول : ربُّ الدار ، وربُّ الدابَّة : يعني مالكها .

وتدلُّ على الرعاية والتربية ، رعاية الشيء حتى يبلغ كمالَهُ المُقَدَّرَ لنوعه ، فالله هو الراعي ، هو المُربِّي ، هو الذي يرعى هذا الكون ، ويرعى الإنسان ، ويرعى كلَّ شيء في هذا الوجود حتى يبلغ كمالَهُ المقدَّرَ لمثله .

صراطُ العزيزِ الحميد :

﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

العلماء يقولون : هذه بدل من كلمة : ﴿ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ بدل كلٍّ من كلٍّ ، أي :

OBEIKAN.COM

تُخرجهم من الظلمات إلى النور ، ما هو هذا النور؟ إنه يتمثل في ﴿ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، تنقل الناس من الضلالات ، من الأباطيل ، من المفاسد ، من الرذائل إلى النُّور ، أي : إلى صراط الله العزيز الحميد .

إضافة الصِّراط في القرآن الكريم :

الصِّراط هو : الطريقُ الواسع ، الذي ذكره الله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦،٧) ، الصِّراط المستقيم هو : صراط الله ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى:٥٢،٥٣) .

وأحيانًا يضاف إلى سالكيه : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفاتحة:٧) ، من النبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين .

وأحيانًا يضاف إلى رسول الله ﷺ الداعي إليه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

وأحيانًا يضاف إلى مَنْ شَرَع هذا الصِّراط ، وإلى غاية هذا الصِّراط ، لأنَّ لهذا الصِّراط غاية ؛ أن يُوصِلَكَ إلى الله : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم:٤٢) ، إلى رضى الله ورضوان الله ، إلى مَثُوبة الله ، وهذا غاية الغايات .

هناك طريق يوصلك إلى سَخَط الله ، إلى عذاب الله ، إلى جهنَّم وبئْسَ المصير ، هذه سُبُل على رأس كلٍّ منها شيطان يدعو إليه[1]، أما الصِّراط فهو الذي يوصلك إلى الله ، إلى رضوانه ومثوبته .

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (٤١٤٢) ، والنسائي في الكبرى (١١١٧٤) ، وابن حبان في المقدمة (٧) بإسناد حسن ، والحاكم (٣٢٤١)وصححه عن ابن مسعود ولفظه : « خط لنا رسول الله ﷺ خطا فقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله فقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

إضافة الصِّراط إلى إسمين من أسمائه الحُسنى :

القرآن اختار هنا بدل ما يقول : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ ، كما قال في سورة الشورى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى:٥٢،٥٣) ، أضاف الصِّراط إلى بعض أسمائه الحسنى : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، واختار هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله الحُسنى لدلالاتهما ؛ لأنَّ أحدهما يدلُّ على العزَّة : القوة والغَلَبة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ : المنيع الذي لا يغلبه شيء ، ولا يقهره شيء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

والآخر يدل على الحمد والثناء ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ : أي المحمود على كلِّ حال ، والمحمود بكلِّ لسان ، المحمود في ذاته ، والمحمود في صفاته ، والمحمود في أفعاله .

فالاسم الأول يُمثِّل : أسماء الجلال ، والاسم الآخر يُمثِّل : أسماء الجمال ، ولله تعالى أسماءُ الجلال وأسماء الجمال : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٧٨) .

الجلال يُمثِّل القدرة والقوَّة ، والجمال يُمثِّل الإحسان والرحمة . . . فالله سبحانه وتعالى له الملك وله الحمد .

﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ يمثِّل الملك ، و﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ يُمثِّل الحمد .

هناك أناس لهم الملك ، ولكن ليس لهم الحمد ، لهم الجبروت ، ولهم التَّسلُّط على عباد الله ، يقهرون الضعفاء ، ويتسلَّطون على المساكين والفقراء ، لكنهم ليسوا محمودين .

الله وحده هو الذي له الملك وله الحمد : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن:١) .

OBEIKAN.COM

سُنَّة القرآن في إضافة اسم من أسماء الحمد بعد اسم (العزيز) :

﴿ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ . . دائمًا القرآن إذا ذكر (العزيز) يذكر اسمًا من أسماء الحمد ، أي من أسماء الجمال . وهنا ذكر ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، وبعد آيتين سيذكر : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، في قوله : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، وأكثر ما قُرن باسم (العزيز) في القرآن (الحكيم) ، ولكن أيضًا يوجد : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك:٢) ، و﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (ص:٦٦) ، و﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ (ص:٩) ، و﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الروم:٥) ، ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء:٩) ، ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (يس:٣٨) ، . . . وهكذا القرآن يقرن دائما اسم العزيز باسمٍ من أسماء الحمد والجمال .

ومَنْ يتأمَّل هذه الأسماء التي اقترنت في القرآن : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، يجد أنَّ هناك حكمة في ربط اسم بقرينه . . قد تكون الحكمة واضحةً وقد تحتاج إلى تأمُّل .

سرُّ اقْتران اسم العزيز بالحكيم :

بعضُ الناس توقَّف عند قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة:١١٨) .

فربما توقَّع بعض الناس (وإن تغفر لهم فإنَّك أنت الغفور الرحيم) لا . . هنا ﴿ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، إذا غفرتَ لن تَغْفِرَ عن ضَعْف ، تغفر عن عزّة وقوَّة ، ولا تضع الأشياء في غير موضعها ، بل أنت حكيم ، تغفر لمَن يستحقُّ المغفرة .

كذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٣) . هنا ذكر العزَّة والحكمة ؛ لأنَّ تأليف القلوب المتنافرة أمرٌ عسير . كيف تُؤلِّف بين قلوب الناس ولهم أهواء شتَّى؟ وكلُّ واحد مملكة في نفسه ، له مطالبُهُ وله

خُصوصيَّاته ، كيف تُؤلِّف هذه القلوب؟ إنها تحتاج إلى عزَّة وإلى حكمة أيضًا : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٣) .

مَنْ هو العزيز الحميد ؟

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

هناك قراءتان : قراءة تقول : (ٱللهُ) بالرفع ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ؛ أي : ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ ، هو الله ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وقراءةٌ على الجرِّ ليس على الرفع : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، بدل ممَّا قبله : ﴿ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

قراءة حفص التي نقرأ بها نحن هي بالجر : ﴿ ٱللَّهِ ﴾ .

لفظ الجلالة هذا ، العَلَم على الذات الإلهيَّة ، هذا الاسمُ الكريمُ الذي تكرَّر في القرآن ألفين وستمَّائة وسبعًا وتسعين مرة .

عناية القرآن بالثناء على الله عزَّ وجل :

انظر كيف يهتمُّ القرآن بشأن الألوهيَّة ، وبالثناء على الله عزَّ وجلَّ .

لا يوجد كتابٌ في الدنيا يُثْني على الله كما يُثْني عليه القرآن ، من أوَّل آية فيه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:١،٢) ، إلى آخر سورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾(الناس:١-٣).

اقرأ في الكتاب المُقدَّس ، اقرأ في التوراة وأسفارها الخمس ، كم فيها من الثناء على الله ، كم ذُكر فيها لفظ الجلالة؟! نادرًا جدًّا ما تجد ذلك . وتجده يقول : رب

OBEIKAN.COM

إسرائيل أو رب الجنود . ليس رب العالمين ، ولا رب الناس ، أو ملك الناس ، أو إله الناس .

تكرُّر لَفْظ الجلالة وأسماء الله الحُسْني وصفاته وأفعاله في القرآن :

لكن في القرآن لفظ الجلالة (الله) تكرَّر في القرآن هذه المرات ، أيضًا لفظ الرب تكرَّر نحو : تسعمائة وبضعًا وخمسين مرة ، غير الأسماء الأخرى : العزيز ، والحميد ، والحكيم ، والسميع ، والبصير ، واللطيف ، والرحيم ، والخبير . . . إلى آخره ، مئات المرات ، غير الأفعال مثل : الذي يخلق ويرزق ، ويعطي ويمنع ، ويبسط ويقدر ، ويعزُّ ويذلُّ ﴿ **تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (آل عمران:٢٦) ، وخلق السماوات والأرض ، وفَعَل ، وفَعَل . كلُّ هذا في هذا القرآن العظيم .

سرُّ تقديم الخبر في قوله : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾

﴿ **ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ ، هذا المُلْك بِعُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه لله .

وكلمة ﴿ **لَهُۥ** ﴾ مُقدَّمة هنا ، الذين يعرفون اللغة العربية وأسرارها يقولون : لماذا قدَّم ﴿ **لَهُۥ** ﴾؟ لماذا قدَّم الخبر ﴿ **لَهُۥ** ﴾ في قوله : ﴿ **لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ﴾ ، ولم يقل : (ما في السماوات وما في الأرض له)؟

وذلك ليفيد الحصر ، أي : له لا لغيره ، ﴿ **مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ له حَصْرًا ، لا لأحدٍ ممَّن أشركوا به من دون الله ، ليس لِمَنَاة ، ولا للات ، ولا للعُزّى ، ولا لهُبل ، ولا لآلهة اليونان ، ولا لآلهة الرومان ، ولا لآلهة البوذيين ، أو الهندوسيين ، أو الوثنيين في أنحاء الأرض ، ليس لهذه الآلهة المُزيَّفة شِبْر

ولا فِتْر[1] ولا سنتيمتر واحدٌ لا في السماوات ولا في الأرض ، كلُّ ما في السماوات وما في الأرض لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ:٢٢) .

لا يملكون مثقال ذرَّة ، ولا حتى بالشِّراكة يشتركون فيه ، وليس له جلَّ وعلا ، ظهيرٌ ولا معينٌ في هذا . المِلْك والمُلك كلُّه لله ، له ما في السموات وما في الأرض مِلْكًا ومُلْكًا ، المِلْك له ، والْمُلك له ؛ قد تملك الشيء ، ولا تملك التَّصرُّف فيه ، فله المِلْك ، ولكن ليس له المُلْك ، بينما مَن له المِلْك وله المُلْك هو الله سبحانه وتعالى ، ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة:١٠٧) .

السماوات والأرض في القرآن الكريم :

السماوات والأرض تكرَّرت في القرآن : مائة وتسعين مرَّة ، ذُكرت الأرض أحيانًا وحدها ، وذُكرت السماء أحيانًا وحدها ، إنَّما السماوات بهذا الجمع والأرض ذكرت : مائة وتسعين مرَّة ، ودائمًا السماوات مجموعة والأرض مفردة .

لم يذكر في القرآن أنَّ الأرض سبع ، كما في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (المؤمنون:٨٦) ، وفي قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك:٣) ، حتى إنَّ سيدنا نوحًا عليه السلام قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (نوح:١٥،١٦) .

---

(١) قال الجوهري : الفتر : هو ما بين طرف السبابة والإبهام إذا فتحتهما . الصحاح : مادة (فتر)

OBEIKAN.COM

المراد بالمثليَّة في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ :

فالسماوات ذكرت في القرآن أنها سبعًا ، أما الأرض ، فلم يأتِ في القرآن إلا آية واحدة في آخر سورة الطلاق تقول : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ (الطلاق:١٢) . مثلهنَّ في ماذا؟ في العدد؟ في التكوير مثلاً؟ في انطباق القوانين الكونيَّة عليهما؟ لم يقل لنا ، ولم يأت حديثٌ يقول : إنَّ الأرض سَبعٌ إلا حديث : «اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين السبع وما أقْللن»[1].

وأما الحديث الآخر : «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوَّقه الله إيَّاه يوم القيامة من سبع أرضين»[2] لا يدلُّ على أنَّ الأرضين التي خلقها الله سبعًا .

هناك بعض علماء الجيولوجيا يقولون : إنَّ للأرض سبعَ طباق ، فهذا يمكن ، إذا كان معنى الطباق : طبقةً بعد طبقة بعد طبقة .

ما هي السماوات السبع ؟

إنما السماوات هذه التي تعلونا ولا نَرَى منها إلا هذا اللون الأزرق ، ولا نعرف ماذا فيها ، أو ماذا وراءها ، نعم فيها الشمس والقمر الذي يستمدُّ نوره من الشمس ، وفيها الكواكب السيَّارة : زُحَل ، وعَطَارد ، والمُشْتَري ، والمريخ ، والزهرة . . .

---

(١) رواه النسائي في الكبرى كتاب السير (٢٥٦/٥) ، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٣) ، وابن حبان في الصلاة (٢٧٠٩) ، وقال الأرنؤوط : إسناده حسن ، والحاكم في الجهاد (١٠٠/٢) وصححه ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الحج(٢٥٢/٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٣٥/١٠) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عطاء بن أبي مروان وأبيه وكلاهما ثقة ، وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (١٧١١٨)) ، وحسن إسناده الضياء في المختارة (٧٢/٨) ، وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٤٧/١)عن صهيب .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ، ومسلم في المساقاة (١٢٣٠) ، وأحمد (١٦٣٣) ، عن سعيد بن زيد .

OBEIKAN.COM

وهذه الكواكب في هذه السماء الدنيا ، وحتى إن بعض العلماء مثل الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى[1]، يقول : كلُّ ما نرى من النجوم التي يأتي إلينا ضوؤها بعد ملايين من السنين الضوئيَّة ـ كما يقول علماء الفلك ـ كلُّ هذه في السماء الدنيا ، واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ (الملك:٥) ، أي : بالنجوم ، فكلُّ هذه النجوم ، وكلُّ هذه الأجرام ، وكلُّ هذه الكواكب في السماء الدنيا ، ولكن ماذا بعد السماء الدنيا؟ لا نعرف عنها شيئًا ، هذا ملك واسعٌ ، الله أعلم به .

جاء في دعاء الرفع من الركوع : «اللهمَّ ربَّنا لك الحمد ، ملءَ السماوات ، وملءَ الأرض ، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد»[2]. فهناك أشياء بعد السماوات والأرض الله أعلم بها ، كما جاء في القرآن : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣) ، وفي آية أخرى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(الحديد:٢١)، فإذا كان عرض الجنة عرض السماء والأرض فما هو طولها؟ ماذا يكون؟ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ .

هذا الكونُ الواسعُ الكبير ، الذي يَتصرَّف فيه ويحكمُه ويحكمُ كلَّ ذرَّةٍ فيه : هو الله ، ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

وهذا يدُّلنا على تعظيم أمر الكتاب : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى

---

(١) في مقال له في مجلة (الوعي الإسلامي) الكويتية بعنوان : ما هي السماء؟ العدد الخامس والثلاثين ، الصادر في محرم سنة ١٣٨٧هـ ، إبريل ١٩٦٧م

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦) ، وأحمد (١٩١٠٤) ، وأبو داود في الصلاة (٨٤٦) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٧٨) ، عن ابن أبي أوفى .

OBEIKAN.COM

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، فالعزيزُ الحميدُ ، هو الذي أنزل الكتاب ليهديَ به الناس ، وليُخْرجهم من الظلمات إلى النور على يديك يا محمد .

معنى كلمة (الوَيْل) في القرآن :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

الوَيْل : دعاءٌ بالهلاك والعذاب .

هناك بعض المفسِّرين يذكر عند كلمة (وَيْل) : أنها وادٍ في جهنَّم . وهذا ليس تفسيرًا للفظ ؛ كلمة (وَيْل) كلمة معروفة في اللغة العربية ، يعرفها المشركون ويعرفها المسلمون ، قبل أن ينزل القرآن وقبل أن يعرفوا جهنَّم ، والويل هو : الهلاك والعذاب .

وَيْلٌ لهم بمعنى : يا وَيْلَهم ، إنَّما الذين يقولون : واد في جهنم ، هذا ليس تفسيرًا ، وإنما هو تمثيلٌ لبعض مفردات الويْل ، أنَّ لهم واديًا في جهنَّم ، إذا صحَّت الأحاديث ، وما أظنُّها صحيحة[1] في هذا المعنى .

والعذاب للكافرين الجاحدين ، الذين لم يهتدوا بالكتاب المنزَّل ، لم يُخرجهم هذا الكتاب من الظلمات إلى النور ، لم يهتدوا إلى صِراطِ العزيز الحميد ، بل كفروا به .

معنى الكفر :

ومعنى الكفر هو السَّتْر والتَّغْطية ، إنهم غَطَّوا على الحقيقة ، طمسوا على

---

(١) ومنها : « ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر سبعين خريفا قبل أن يبلغ قعرها » رواه أحمد (١١٧١٢) وقال مخرجوه : إسناده ضعيف . والترمذي في الزهد (٢٣٨٣) وقال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢١٣٦) .

OBEIKAN.COM

الحقيقة باتِّباع أهوائهم ، لم ينظروا إلى النُّور ، ولكنهم غَشَّوا أعينهم فلم يروا هذا النور ، الكفر هو التغطية ، حتى كلمة (كَفَر) في اللغات الإنجليزية وغيرها تفيد معنى التغطية ، يغطُّون ويسترون الحقيقة ولا يرونها وهي واضحة أمامهم : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

مقابلة الكفر بالشكر :

الكفر أحيانًا يقابل بالشكر ، وأحيانًا يقابل بالإيمان ، فالكافرون هنا يعني : هم الذين كفروا النِّعمة ولم يشكروا نِعْمَةَ الله ، أو الذين كفروا بالمُنْعِم عزَّ وجلَّ .

فالكفر في القرآن يأتي على وجهين : أحيانًا الكفر يقابل الشكر ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣) ، وكما في سورة إبراهيم نفسها بعد آيات قليلة : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) ، فقابل بين الشُّكر والكفر .

مقابلة الكفر بالإيمان :

وأحيانًا يقابل بين الإيمان والكفر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ (البقرة:٢٥٣) ، وكما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ (التغابن:٢) .

دلالة كلمة الكفر عند الإطْلاق :

فالكافرون هنا : هل هم الكافرون بنعمة القرآن وإنزال القرآن؟ أم الكافرون بالمُنْعِم ، بالله عزَّ وجلَّ ؟

OBEIKAN.COM

الظاهر أنَّ كلمة الكافرين إذا أُطلقت في القرآن تعني الكفر المقابل للإيمان ، هذا هو الأظهر ، فهؤلاء كفروا كفرًا لأنهم لم يؤمنوا بالله ، ولم يؤمنوا بكتابه ، ولم يؤمنوا برسوله ، فحقَّ عليهم العذاب .

العذاب الشديد للكفار في الآخرة :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ الويل ـ كما سبق ـ عذاب وهلاك ، وَيْلٌ لهم من عذاب شديد ، فإنَّ لهم عند الله عزَّ وجلَّ عذابًا شديدًا يوم القيامة ، فقد لا يُعذَّبون في الدنيا ، فكثيرٌ من الكافرين ينجون من عذاب الدنيا ، يُمهلهم الله إلى الآخرة ، فمن شأن الله تعالى أن يُمْهل ولا يُهْمل ، كما قال جلَّ وعلا : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف:١٨٢،١٨٣) ، قد يؤخِّرهم إلى الآخرة . كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (إبراهيم:٤٢) .

العذاب الحسِّي والمعنوي :

فالعذابُ المقصودُ هنا هو عذابُ الآخرة ، وهو أخْزَى وأشد وأنكى من عذاب الدنيا بمرَّات ومرَّات ، فالعذاب في الآخرة هو عذاب النار التي أعدَّها الله ، ومعه عذاب الخزي والهوان ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون:١٠٨)، وهذا نوعٌ من العذاب المعنوي بجوار العذاب الحسِّي .

اختلاف وَصْف عذاب النار في القرآن :

عذاب النار ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ، ﴿ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ، حسب

OBEIKAN.COM

تعبيرات القرآن وَفْقَ المقامات المختلِفة ، هنا قال : ﴿ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وأيُّ : عذاب أشدّ من عذاب النار؟ وليست أيَّ نار .

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » . قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية! قال : « فُضِّلت عليهنَّ بتسعة وستين جزءا ، كلُّهن مثل حرِّها »[1]. إننا لا نتحمَّل لسعة من هذه النار ، كما قال الشاعر :

جسمي على الشمس ليس يَقْوى ... ولا على أهْون الحَرارة
فكيف يَقْوى على جحيمٍ ... وَقودُهَا النَّاسُ والحجارة؟

جاء في الحديث الصحيح ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « يُؤْتَى بأنْعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ـ الذي عاش في النعيم والرفاهيَّة والطيِّبات ، وما لذَّ وطاب من الطعام والشراب والنِّساء والخدم والحشم ـ فيُصْبغ في النار صَبغة ـ يغمس في النار غمسة واحدة ـ ثم يقال : يا ابن آدم ، هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول : لا والله يا رب »[2]. غمسةٌ واحدةٌ تُنَسيه كلَّ ملذَّات الدنيا ، كلَّ ما أصابه من شهوات ، كلَّ ما جمعه من أموال ، كلَّ ما بناه من قصور ، بغمسة واحدة في النار ينسى كلَّ لذائذ الدنيا وطِّيباتها .

أسباب الضلال :

١- استحبابُ الحياةِ الدنيا على الآخرة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ ﴾

مَن هم هؤلاء الكافرون ؟ ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ،

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥) ، ومسلم في الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها (٢٨٤٣) ، عن أبي هريرة .

(٢) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار(٧٢٦٦)، وأحمد (١٣١١٢) عن أنس بن مالك .

OBEIKAN.COM

ما الذي جعل هؤلاء الكافرين يَعْمَوْنَ عن النُّور وهو واضحٌ أمامهم ، عن الحقِّ وأدلَّته ، وهي كالشَّمس في رابعة النهار؟! ما الذي جعلهم يسيرونَ وراء الطاغوت ، ويكفرون بالله ويكفرون برسالاته ؟ ! سرُّ هذا أنهم اسْتحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرة ، كانت الدنيا أكبرَ همِّهم ، ومَبْلغَ علمهم ، فاستحبُّوها على الآخرة ، جَعَلوا حُبَّها فوق حُبِّ الآخرة ، آثروا الدنيا على الآخرة ، وهذه هي مشكلة البشر إيثار الأُولى على الآخرة : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الأعلى:١٦) ، ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٣٤-٣٩) ، ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾

(القيامة:٢٠،٢١) .

ما موقف الناس في هذه الحالة؟ هما موقفان ، وهما صنفان لا ثالث لهما : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

(النازعات:٣٧-٤١) .

المعضلة هي إيثارُ الدنيا على الآخرة ، الذين اسْتَحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، كانت الدنيا فوق كلِّ شيء عندهم .

سبب جحود هِرَقْل لرسالة النَّبيِّ ﷺ :

مَن قرأ صحيح البخاري وجد في أحاديثه الأولى ـ بعد حديث : « إنما الأعمال بالنيات » ـ حديث هِرَقل الذي وَصَلته رسالة النبي ﷺ يدعوه فيها إلى الإسلام قائلاً له : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ﷺ ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على مَن اتَّبع الهدى .

OBEIKAN.COM

أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تَسْلَم يُؤْتك الله أجرك مرتين ، فإن تولَّيت فإنَّ عليك إثم الأريسيين .

و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤) »[1].

كان هِرَقل رجلاً عاقلاً ، أحبَّ أن يستوثق من صدق الرسالة التي بُعث بها محمد ﷺ ، وقال : هاتوا لي ناسًا من العرب ، فجاءوا له بأبي سفيان ، وكان في رحلة تجارية في ذلك الوقت ، جاءوا به ، فظلَّ يسأله عن النبيِّ ﷺ أسئلةً في غاية الدقة ، وأبو سفيان يجيب ، ويخشى أن يكذب فَيُؤْثر عنه الكذب .

فقال هرقل : إن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمتُ لقاءه ، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه .

ثم عَرَضَ الأمر على رجال الدين : القسس والرهبان ، فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبي . فهاجوا عليه ، فقال لهم : إني قلتُ مقالتي آنفا أختبر بها شدَّتكم على دينكم ، فقد رأيتُ . بعد أن اقتنع أنَّ محمدًا رسول الله غلَّب الدنيا ، غلَّب حُبَّ مُلْكِهِ على الدخول في الإسلام ، وبقي يحارب الإسلام ، ثم هزمه الإسلام بعد ذلك ، والحمد لله .

موانع الإيمان واتِّباع الحق :

الذين حاربوا رسول الله ﷺ من مشركي قريش ، كانوا يعلمون أنه على حقٍّ ، ولكنه الكِبْر من ناحية ، والحسَد من ناحية ، والتقليد الأعمى لآبائهم من ناحية أخرى .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي(٧) ، ومسلم في الجهاد والسير (٤٧٠٧) ، كما رواه أحمد في المسند (٢٣٧٠) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٧) ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير(١١٠٦٤) ، عن ابن عباس .

OBEIKAN.COM

اليهود الذين وقفوا ضدَّ رسول الله ﷺ كان الحَسد وحُبُّ الدنيا وراء ذلك ؛ قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ (البقرة:١٠٩) .

٢- الصَّدُّ عن سبيل الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

لم يكتفوا بأن يكفروا في أنفسهم ، بل ظلُّوا يصُدُّون غيرهم عن سبيل الله ، صدٌّ عن سبيل الله بمعنى : منع الناس عن الدخول في دين الله ، صَرْف الناس عن الدخول في الإسلام ؛ كالذي يقف في الطريق يمنع الناس من السير فيه ، كقطَّاع الطريق الذين يقفون يمنعون الناس ، إلا إذا دفعت لهم إتاوة أو ما عندك أو غير ذلك ، فهذا صدٌّ عن سبيل الله .

كما قال سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (الأعراف:٨٦) ، وكما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾ (آل عمران:٩٩) ، هؤلاء يَصُدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا .

يقول بعض المُفسِّرين : يَصُدُّون أنفسهم ويَصُدُّون غيرَهم . وإنما المعنى المراد هنا : يصدُّون غيرهم عن سبيل الله .

فِعْلُ صَدَّ : يأتي في اللغة لازمًا أو قاصرًا ومتعدِّيًا ، صدَّ بمعنى أعرض ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (النساء:٦١)، فهذا صَدٌّ قاصرٌ لازمٌ ، وصدَّ أي : أعرض .

OBEIKAN.COM

هناك صدٌّ بمعنى منع الغير ، يعني يريد منع الناس من الدخول في الإسلام ، وإذا دخلوا في دين الله يفتنهم ويؤذيهم ويعذِّبهم ، كما فعل مشركو مكة بالمستضعفين ، عذَّبوا عمَّار بن ياسر وأباه ياسرًا وأمه سميَّة ، ومات أبوه ياسر وأمه سميَّة تحت العذاب ، عذَّبوا بلالاً وغيره من المسلمين ، فهؤلاء المشركون يصدُّون عن سبيل الله .

سبيل الله عزَّ وجلَّ :

سبيلُ الله هو الطريق المُوصل إلى الله ، أي : إلى رضوان الله ، إلى مثوبة الله ، إلى جنَّة الله ، ثم هو سبيل الله لأنَّ الله هو غايته ، إنه يوصل إلى الله ، وإلى رضوان الله ، ولأنَّ الله هو الذي شرع هذا السبيل ، وهو الذي دعا إليه ، وهو الذي هدى إليه ، ولذلك نُسِبَ إليه ، فسبيلُ الله هو صِراطُ الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾

(الشورى:٥٢،٥٣) .

هؤلاء يصدُّون عن سبيل الله ، عن الطريق الموصلة إلى الله ، وقفوا قطَّاعًا للطريق ، يصدُّون عن سبيل الله .

٣- ابتغاء العوج لسبيل الله سبحانه :

﴿ **وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾

يريدونها سبيلاً عوجاء غير مستقيمة ، والله جعل هذه السبيل سبيلاً مستقيمة لا عوج فيها ولا أمْت ، لا تميل إلى اليمين ولا إلى الشمال .

الصِّراط المستقيم هو أقرب طريق إلى الهدف ، الله جلَّ وعلا يريدها مستقيمة ، وهم يريدونها عِوَجًا .

OBEIKAN.COM

قال : ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ ، لأنَّ السبيل تُذكَّر وتؤنَّث ، فأحيانًا تذكَّر كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (الحجر:٧٦) ، وأحيانًا تؤنَّث ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف:١٠٨) ، فهؤلاء يريدون هذه السبيل عوجاء .

الضلال البعيد :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

هؤلاء الكافرون المستحبُّون للدنيا على الآخرة ، الصَّادُّون عن سبيل الله ، الذين يريدونها سبيلاً عوجاء ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ . كأنَّ هناك ضلالاً قريبًا وضلالاً بعيدًا .

ما معنى الضلال ؟ الضلال هو : الغياب والذهاب عن الحقِّ والصواب . ضلَّ أي : ذهب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (السجدة:١٠) . أي : أإذا غبنا في الأرض وأصبحنا عظامًا ورُفاتًا ، واختلطنا بالتراب وانتهى الأمر ؛ أإنا لمبعوثون ؟ !

الضلال الدنيويّ والدينيّ :

هنالك ضلال دنيوي وضلال ديني .

فالضلال الدنيوي : في أمور الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف:٣٠) .

أي : أساءت التَّصرُّف ، تترك العزيز ، وتحبُّ الخادم الذي يخدمها ويعمل عندها !

OBEIKAN.COM

ومثل ذلك ما قال أبناء يعقوب : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف:٨) ؛ لأنه أحبَّ أخوينا الصغيرَيْن ونحن عُصْبة . ولما قال لهم : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ (يوسف:٩٤) . قالوا له : ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يوسف:٩٥) . فهذا ضلالٌ دنيويٌ .

لو أرادوا الضلال الديني لكفروا ، كيف يصفون أباهم وهو نبيُّ ابن نبيٍّ ابن نبيٍّ ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم أنه في ضلال ديني ؟ ! لا . . فمعنى الضلال هنا : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يوسف:٩٥) أي : إنَّ رأيك غير سليم .

وهناك الضلال الديني : والقرآن حين يذكر كلمة ضلال يُراد به في الأكثر الضلال الديني ، الضلال عن الحقِّ ، وعن الهدى . فهؤلاء : ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٧٤) ، ضلال ظاهر ، لأنَّ الحقَّ ظاهر أمامهم وضلُّوا عنه ، وضلُّوا عن الطريق ، عن الاتجاه الصحيح .

إذا كان الضلال عن الاتِّجاه الأساسي ، فالإنسان كلما مشى في الطريق كلما أوْغَلَ في البُعد . الطريق شرق وهو يذهب إلى الغرب ، كلما مشى كيلومترًا بَعُد عن الهدف ، وكلَّما مشى عشرة كيلومترات صار أبعد عن الهدف ، كلما مشى يزداد بُعدًا ، هذا هو الضلال البعيد ، الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١١٦) ، ويقول : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١٣٦) .

ضلال الكفار البعيد :

فضلال هؤلاء الكفَّار الذين لم يهتدوا بهُدى الله ، ولم يهتدوا بالكتاب المُنزل ، ولم يُخْرجهم من الظلمات إلى النُّور ، ولم يهتدوا إلى صراط العزيز الحميد ، واستحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وَصَدُّوا عن سبيل الله ، وبَغَوْها عِوَجًا ؛ هؤلاء في ضلالٍ بعيد ، لا يُرْجى لهم منه عودة إلا أنْ يأذن اللهُ عزَّ وجلَّ ويهديَهُم إلى صراطه المستقيم .

تيسير أسباب الهداية :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم:٤)

تعنُّت قريش في طلب نزول القرآن بالأعجميَّة :

كأنَّ قريشًا قالت : لولا أُنزل على محمد الوحي بلغةٍ غير اللغة العربية ، وهذا من تَعَنُّتهم ، يقولون هذا عن محمد ﷺ وهو العربي ، والمبعوث إلى العرب ابتداء ، كيف ينزل عليه كتاب بغير لغته؟ لا يفهمه هو ولا يفهمه قومه .

إنما هو التَّعنُّت الذي أوصلهم إلى أن يقولوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(الأنفال:٣٢) .

هل هذا عقل؟ من المفترض أن يقولوا : (اللهم إن كان هذا هو الحق اهدنا له) . ولكن أن يقولوا : أمْطِرْ علينا حجارة أو ائْتنا بعذاب أليم . أيُّ منطق هذا؟! لقد فقدوا المنطق والعقل فقالوا : ﴿ ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ ﴾ (يونس:١٥) بلغةٍ أخرى ، كأن عندهم اللغة التي تنزل بها كتب السماء غير اللغة العربية ، وكأنه يوجد لغة دينية مخصوصة ، اللغة العربية ليست منها .

ردَّ الله سبحانه عليهم في سورة فصِّلت ، فقال : ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ ﴾ (فصلت:٤٤) .

كيف يكون القرآن أعجميًّا والمُنزَّل عليه عربي؟!

وهذا هو المنطق ، لذا ردَّ القرآن عليهم مقولتهم العجيبة والغريبة وغير المنطقية بالمرَّة ، يقول : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ ، كلُّ الرسل قبل محمد ﷺ من عهد نوح إلى من بعده ، أرسلوا بلغة أقوامهم ليُبيِّنوا لهم ،

لأنَّ كلَّ رسول مُهمَّته أن يُبيِّن لقومه : ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (النحل:٣٥) ، الرسل عليهم أن يُبلِّغوا ، وأن يُبلِّغوا بلاغًا مُبينًا ، يوصل المعنى إلى العقول وإلى القلوب ، هذا هو المطلوب من الرسل ، ولا يكون هذا إلا إذا أُرسل الرسول بلغة قومه .

دلالة كلمة (لسان) في القرآن :

وكلمة لسان في قوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ ماذا يُراد بها؟

اللسان يُراد به أحيانًا هذا العضو : (صغير الْجِرْم كبير الجُرْم) ، كما يقول العرب . هذا الجرم الصغير ؛ كما يقول الله عنه : ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴾ (البلد:٨،٩) ، وكما يقول الله تعالى عنه : ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (النور:٢٤) ، وكما قال الله عنه : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾ (الفتح:١١) .

أحيانًا يراد به هذا العضو الذي بـ (الفم) ، وأحيانًا يراد بكلمة اللسان : اللغة . لسان قوم أي : لغتهم . كما قال عزَّ وجل عن القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥) ، هو لسان اللغة العربية ، اختاره الله لينزل أعظم كتبه ، وآخر كتبه التي تتضمَّن كلمات الله الأخيرة الهادية للبشرية جميعًا ، اختار لغة العرب ؛ لما فيها من خصائص لا تتوافر لغيرها من اللغات ، ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾

(الأنعام:١٢٤) .

اختار محمدًا ﷺ وهو أفضل الخلق ، ليحمل الرسالة العامَّة الخالدة الخاتمة ، واختار العرب ليكونوا قومه وصحابته ، واختار لغةَ العرب لتكون اللغة التي ينزل بها القرآن العظيم ، ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤) .

OBEIKAN.COM

بيان الرسول ﷺ :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

مهمة الرسول أن يُبيِّن ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ (النحل:٦٤) فمن أوصاف القرآن أنه كتاب مبين : ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر:١) ، والرسول مبيِّن لقومه .

الطريق إلى تبليغ الرسالة العالميَّة للناس :

ولكن من المعروف أنَّ محمدًا ﷺ لم يرسل إلى العرب وحدهم ، إنما أرسل إلى العالمين : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨) ، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨).

فكيف يخاطب الناسَ وهو مُرسَل بلسان عربيٍّ ، وكتابه كتاب عربيٌّ ، وقومه من العرب ؟

كيف سنوصِّل الرسالة العالمية إلى الناس؟ هنا يأتي دور الترجمة ، نوصِّلها بأن نترجمها إليهم .

الصحابة والمسلمون في الزمن الأول كانت خطَّتهم ، وكان منهجهم أن يترجموا الأمم إلى الإسلام ، الأمم تتحوَّل إلى الإسلام ولغة الإسلام ، يتحوَّلون إلى اللغة العربية ، فلا يحتاجون إلى ترجمة ، هم يتعلمون الإسلام ، ويتعلمون لغة القرآن معها ، فلسنا بحاجة إلى أن نترجم لهم القرآن ؛ لأنهم تُرجموا إلى القرآن .

OBEIKAN.COM

بعد ذلك ، لم يعد هذا النهج قائمًا ولا مقدورًا عليه عند المتأخِّرين من المسلمين ، أصبحنا في حاجة إلى أن نترجم القرآن إلى الناس .

ترجمة القرآن :

في العقد الأول من القرن العشرين حصلت معركة في مصر بين العلماء عن ترجمة القرآن ، هل يُترجم القرآن أو لا يُترجم ؟ وقالوا : لا تجوز الترجمة ، ودخل فيها شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ، ودخل فيها علماء كبار ، وكتب قاضي القضاة الشيخ محمد سليمان[1] كتابًا سمَّاه : (حَدَث الأحداث في الإسلام) ، وكُتِبَ فيها كتب ، وانتهى الأمر بعد هذا كلِّه ، إلى أنه لا بد من ترجمة معاني القرآن .

ليس المقصود بترجمة القرآن ترجمة حرفية ، ولكن ترجمة معاني القرآن ، ولذلك كانت هنالك محاولات لاختيار موجز مختصر ليُترجم منه القرآن .

قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر ، عبر لجنة من العلماء ، من مختلف الأقطار بإصدار كتاب : (المنتخب في تفسير القرآن) ، ليكون هذا (المنتخب) مصدرا لترجمة معاني القرآن .

ولا زال المسلمون إلى اليومُ مقصِّرين في ترجمة معاني القرآن إلى اللغات المختلفة .

لو نظرنا إلى ما فعل النَّصارى المُبشِّرون والمُنصِّرون ، ترجموا الإنجيل إلى مئات وربما آلاف اللغات واللهجات للعالم ، حتى اللهجات ، ونحن حتى اليوم لم

---

(١) هو القاضي الأديب المصري محمد سليمان إبراهيم عنارة ، تعلم بمدرسة القضاء الشرعي ، وولي القضاء في (ببا) من أعمال بني سويف ، ثم كان نائبًا في المحكمة العليا الشرعية بالقاهرة ، وتوفي فيها سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م ، من أشهر كتبه : (من أخلاق العلماء) .

OBEIKAN.COM

نكد نترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية التي هي أكثر اللغات اتِّساعًا ، ويتكلَّم بها مئات الملايين من المسلمين .

الإشادة بترجمة معاني القرآن للدكتور أحمد زكي حمَّاد :

هنالك محاولات جيِّدة آخرها محاولة الأخ العالم الفاضل ـ الذي جمع بين الثقافتين : الثقافة الأزهريَّة والثقافة الغربية ، ودرس في جامعة شيكاغو ـ أخونا الدكتور أحمد زكي حمَّاد ، ترجم معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية ، وعاش أكثر من عشرين سنة يعمل في هذه الترجمة ، وعرضها على كثير ممَّن يعرفون الإنجليزية فأثنَوا عليه .

وقد قمتُ بكتابة مقدِّمة لهذه الترجمة وإن لم أعرف اللغة الإنجليزية ، وإنما قلتُ ذلك بناء على تزكية المُزكِّين الثقات الذين يعرفون العربية والإنجليزية ، ولأني أعرف الجهد الذي بُذِلَ فيها ، وقد جمع التفاسير القديمة والحديثة ، تفاسير الرواية وتفاسير الدراية ، وشغل نفسه بهذا الأمر ، وأصدر هذه الترجمة لمعاني القرآن الكريم .

معنى جديد في قوله سبحانه : ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

وأريد أن أقف هنا عند كلمة : ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ ، أنا أستخلص من كلمة : ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ ، معنى آخر غير المعنى العام الذي هو اللغة .

فكلمة (لسان) لها معنى آخر كما وَرَدَ عن الإمام الشافعي وغيره قال : لسان اليونان غير لساننا[1] . لا يقصد أنَّ اللغة غير اللغة ؛ إنما يقصد أنَّ مدخلهم العقلي

---

(١) انظر : صون الكلام للسيوطي صـ ٤٥ .

OBEIKAN.COM

غير مدخلنا ، كلُّ جماعة لهم لسان ، ولذلك ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ .

أنا أفهمها أنَّ على الرسول أو على الداعية في عصرنا ، على وَرَثة الرسل والأنبياء : أن يُكلِّموا كلَّ قوم بلسانهم ، العامَّة لهم لسان ، والخاصَّة لهم لسان ، البدو لهم لسان ، والحضر لهم لسان ، أهل المدن لهم لسان ، وأهل الريف والقُرى لهم لسان ، أهل الشرق لهم لسان ، وأهل الغرب لهم لسان ، الناس في القرن الحادي والعشرين لهم لسان ، وقبل قرنين مَضَيا لهم لسان آخر .

لا بد أن تُحدِّث الناس بلسانهم ، كثيرٌ من الدعاة يُخْطئون هذا المنهج ، ويتحدَّثون بلسان غير اللسان المطلوب ، يذهبون إلى العوام ويحدِّثونهم بلسان الخواص ، فيُشكِل الأمر عليهم ، ولا يستطيعون أن يصلوا إليهم أو العكس ، أو يذهب إلى أمريكا ويحدث الناس بمشكلات بلاد الشرق الأوسط ، يتحدَّث عن الأضرحة والمزارات والأولياء ، وأمريكا ليس فيها أضرحة ولا غيرها من الأمور الموجودة في الشرق الأوسط ، لم يشغل الناس بمشكلة غير موجودة . ؟!!

نريد من وَرَثَة الرُّسل والأنبياء أن يبيِّنوا لقومهم بلسانهم ، يكلِّم كلَّ جماعة بلسانها حتى يصلوا إلى الحقِّ .

علينا الدعوة وعلى الله تعالى الهداية :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾

أي : أرسلناهم بلغات أقوامهم ، وبلسان أقوامهم ؛ ليُبيِّنوا ، ولكن ليس من الضروري أن يهتدي جميع الناس بعد البيان .

الإنسانُ عليه البيان ، وعليه البلاغ ، ولكن ليس عليه الهداية كما قال تعالى : ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة:٢٧٢) .

OBEIKAN.COM

إنَّما عليك الدعوة وعلى الله الهداية ، عليك البلاغ وعلى الله الحساب ، عليك أن تَبْذُر الحبَّ وترجوَ الثمار من الربِّ . ابْذُر بذور الدعوة ، قُل كلمة الحقِّ ، ولكن النتيجة ليست بيدك .

سيِّدُنا نوح ظلَّ ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعو الناس ، وما قصَّر وما ضعُف : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٥-٧) .

وَضَعُوا أصَابِعَهم في آذانهم ، وقالوا : لا نريد أن نسمعَ صَوْتَك : ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ ، وَضعُوا ثيابَهم على وجوههم وعلى أعينهم ، وقالوا : لا نريد أن نرى وجهك ، ولا نُحبُّ رؤيتك ولا سماعك .

ما قصَّر نوح عليه السلام ، بل قال عليه السلام : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾(نوح:٨-١٢)، وَعَظهم ورغَّبهم في أمور الدنيا وأمور الآخرة ولم يُقصِّر .

سُنن الله في الهداية والضلال :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

ولكنَّ الله يضلُّ مَن يشاء ، ويهدي مَن يشاء ، القلوب ليست بأيدينا ، القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن .

هنالك سنن تحكم الناس ، هنالك قواعد هي التي تتحكَّم في الناس ، وقد رأينا أناسًا يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، يتَّضح لهم الحقُّ ، ومع هذا يكفرون ، من بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل:١٤) ، بعد البيان يضلُّ الله مَنْ يشاء ويهدي مَن يشاء .

OBEIKAN.COM

وقوله تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ، فيها كلام كثير ، لأنَّ بعض الناس يريد أن يجعل من مثل هذه الآيات دليلاً على الجبْر ، دليلٌ على أن الإنسان مُسيَّر لا مُخيَّر ، وأنه مجبورٌ لا مُختار ، وأنَّ الله هو الذي يضل ويهدي ، وأن الهداية بيده ، ولا دخل للإنسان فيما جنت يداه !!

مثل هذا الكلام ليس صحيحًا ، إنَّما الهداية من الله ، إنه يعطي نَفَحات لمَن يشاء ، ولكنه وضَّح للجميع الحقَّ ، وأقام الحُجَّة ، وأبْطَلَ التَّعِلات والأعذار ، ليس لأحد أن يقول : أنا لم أعرف الحقيقة . لا ، بل عرَفتَ ، وكلُّ شيء كان أمامك ، كلُّ شيء كان واضحًا ، ما الذي منعك من الإيمان ؟ كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ (الانشقاق:٢٠،٢١) ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (النساء:٣٩) ، ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الحديد:٨)؟ ؟!! الأمور واضحة .

فقوله تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ، ليس معناها : أنَّ الأمر فيه جَبْر ، بل الأمر مَوْكولٌ إلى إرادة الإنسان واختياره : ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام:١٠٤) ، ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (الإسراء:١٥) ، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت:٤٦) .

الإضْلال والهداية بحَسَب ما في النفوس كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة:٢٦،٢٧) ، ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد:٢٧) ، ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى:١٣) .

OBEIKAN.COM

هنالك إذن استعدادات في النفوس تأتي الهداية والإضلال بحسبها : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد:٢٧) .

مناقشة أحد المفسِّرين المعاصرين في إرجاع ضمير الضلال والهداية إلى كلمة (مَنْ) :

وهنا ملاحظة كان ذكرها أحد المفسِّرين في العصر الحديث ، وهو الأستاذ : عبد الحميد الخطيب ، وكان سفير المملكة العربية السعودية في باكستان وبنجلادش وله تفسير ، (تفسير الخطيب المكي) هذا التفسير قال فيه : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (النحل:٩٣) مَنْ يشاء الضلالة يضلُّه ، ومَنْ يشاء الهداية يَهْديه .

فجعل يشاء هنا ليست مرجع الضمير إلى الله ، ولكن مرجع الضمير إلى كلمة (مَنْ) ، مَنْ شاء الضلالة أضلَّه الله ، ومَنْ شاء الهداية هَدَاه الله ، وبعض الناس أيَّده في هذا ، وأنا أرى أنَّ هذا ليس هو المُتَبَادَر من الآية ، لأن كلمة : ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ ، ذُكرت في آيات كثيرة جدًّا : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة:٢١٢) ، ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ (العنكبوت:٢١) ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران:١٢٩) .

ذُكرت ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ في القرآن الكريم مرَّات عديدة أكثر من مائة مرَّة كلُّها ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ .

فلماذا كلمة : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ ، هنا نستثنيها ، ونقول : ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : الإنسان؟ فماذا تفعل في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ (الأعراف:١٥٥)؟ الخطاب هنا لا يُوجد فيه : ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ .

فالذي يشاء هو الله عزَّ وجلَّ ، ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ ، أي : الله يُضِلُّ مَنْ يشاء له الضلالة ، ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي : له الهداية ، ولكن الهداية والضلالة تأتي وَفْق سُنن الله .

OBEIKAN.COM

فهذا الكونُ كلُّه بما فيه الإنسان ، تحكمه سننٌ وقوانين كونيَّة واجتماعيَّة لا تَتَبدَّل ولا تَتَحوَّل ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾(فاطر:٤٣).

سرُّ اقْتران العِزَّة بالحكمة :

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

العزيز : القويُّ الغالب المنيع الذي لا يُغْلَب ، ولا يعجزه شيء ولا يقهره شيء ، بل هو الواحد القهَّار ، هو الغالبُ دائمًا ، هو القادرُ دائمًا ، هو العزيزُ .

وهو الحكيم . كثيرًا ما يُذكر مع العزَّة الحكمة ، قُرِنَت الحكمة بالعزَّة في القرآن في آيات كثيرة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٢٠) ، ﴿ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:٦) ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١٥٨) .

الحكيم : هو الذي يضع كلَّ شيء في مَوْضعه . ليس هنالك خَلَل ، الحكمة الإلهيَّة وَضَعت كلَّ شيء بمقدار : ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ (الرعد:٨). ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩) ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢) ، كلُّ شيء بقَدَر موزون ، ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ (الحجر:١٩) ، حتى النبات موزون .

يقول علماء البيولوجيا والنبات : موزون ليس الميزان المعنوي فقط ، بل هو ميزانٌ حقيقيٌّ يمكن بالمليجرام ، وما هو أدق من المليجرام ، كلُّ شيء موزون ، فالله سبحانه وتعالى هو الحكيم : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩) ، هو الذي آتى آدمَ الحكمة ، هو الذي آتى داود الحكمة ، هو الذي آتى الأنبياء الحكمة ، هو صاحب الحكمة ، وهو

OBEIKAN.COM

الحكيم بكلِّ شيء ، لم يَخْلُق شيئًا باطلاً ، ولم يَشْرَع شيئًا عَبَثًا ، كما قال أُولو الألباب : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١) .

* * *

OBEIKAN.COM